

المقاربة التاريخية لأدب الرحلة والجغرافيا العربية

The Historical Approach to Travel Literature and Arabic Geography

الطاهر طويل،¹ مخبر دراسات في التاريخ والثقافة والمجتمع. باتنة 1، جامعة باتنة 1

tahar.touil@univ-batna.dz. <https://orcid.org/0009-0003-6387-4450>

2025-12-21	تاريخ القبول	2025-10-08	تاريخ الاستلام
------------	--------------	------------	----------------

ملخص

عرفت الجغرافيا في العصر الوسيط تحولا هاما في مسار التطور نحو أفق جديد في منظومة الحضارة الإسلامية. وأدى توسع مجالها إلى نشاط الرحالة الذين أصبحت كتاباتهم تشكل جزء من الجغرافيا التي تدرس العمران وأحوال الشعوب التي اختلطوا بها. لذلك أصبحت الرحلة جزء أصيلا من حياة المجتمع. واعتاد الكتاب العرب على استعمال مفهوم "أدب الرحلات" للدلالة على كتابات الجغرافيين والرحلة العرب والمسلمين الذين تركوا مادة غنية بالعناصر الأدبية، تجمع بين الوصف والكشف، والانطباع الشخصي والمغامرة، ضمن بناء أدبي متماسك، غالبا ما يتمتع القارئ ويشد انتباهه. ولذلك فكثيرة هي الكتابات الجغرافية التي تحتوي مختلف الأنجاس الأدبية كالرواية والمقالة والشعر، كما تتضمن ملامح أدبية عديدة مثل الحكايات والأخبار، وال نوادر والآثار.

هذه الرحلات مزجت بين الجغرافيا والأدب والأنثروبولوجيا بسردها لأحوال الأمم والبلدان، وقد تنوعت تأليفهم بين صنوف الأدب والسيرة والوصف والجغرافيا وكانت في مجملها ابداع عربي إسلامي في مختلف أصناف هذه العلوم. وتهدف هذه الدراسة إلى كشف الالتباس الحاصل بين أنجاس الرحلة والجغرافيا والكتابة التاريخية.

الكلمات المفتاحية

الجغرافيا؛ المسالك؛ الرحلة؛ بلاد المغرب؛ التاريخ.

Abstract

Geography in the medieval period witnessed a significant transformation in its development, reaching new horizons within the framework of Islamic civilization. The expansion of its scope led to the activity of travelers whose writings became an integral part of geography, studying the urban landscapes and conditions of the peoples they encountered. Thus, travel became an inseparable part of society. Arab writers commonly used the term "travel literature" to refer to the writings of Arab and Muslim geographers and travelers, who left behind a rich body of work imbued with literary elements.

These journeys blended geography, literature, and anthropology by recounting the conditions of nations and countries. Their works varied across genres of literature, biography, description, and geography, representing, in their entirety, a creative Arab-Islamic contribution to these diverse fields of knowledge. This study aims to clarify the confusion between the genres of travel, geography, and historical writing.

Keywords

Geography; Routes; Travel; Maghreb Countries; History.

* المؤلف المراسل

مقدمة

نالت الرحلة اهتمام الكثير من الباحثين العرب والغربيين على حد سواء، وتشكل أحد أهم مصادر فروع علم التاريخ الذي يهتم بالمجتمعات والدول؛ إذ تطورت بعد الفتوحات الإسلامية خاصة في القرنين الثاني والثالث الهجري/ السابع والثامن الميلادي، وازدهرت حركة التأليف الجغرافي والرحلة لحاجة الخلافة الإسلامية لهذا النوع من العلم الذي أضى -كما أكد عليه المقدسي (ت380هـ/990م)- ضروريا لحركة المسافرين ولفئة التجار، كما أنه سبيل الدعاة في مختلف الأقطار، ولا غنى عنه للسلطان الذي يحتاج إلى معرفة أحوال مملكته، وبالمثل بالنسبة للقضاة والفقهاء والعلماء والحجاج، وهو أيضا سبيل العامة من الناس والحرفيين (المقدسي، 2003، صفحة 8).

وإذا أخضعنا مقولة المقدسي هذه إلى مسار التاريخ نجد أن تراث الرحلة في الفكر العربي الإسلامي يتقاطع بين الأدب والتاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا، فقد سعت الرحلة إلى تحصين كل ما راكمته منذ القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد تدوينا، فقطع إشكال تجنيسها شوطا أوليا عن طريق تأطيرها ضمن تصنيف عام سيعرف بـ "الرحلة".

وقد تنوعت أسماء هذا الصنف؛ فتحدث البعض عن "أدب الرحلة"، لأنه يعتمد على الرواية وسرد الأحداث، فهو بذلك نوع من الكتابة الأدبية لأنه يستخدم آلياتها.

كما يرى البعض الآخر أن الرحلة لا تعدو أن تكون أحد فروع الجغرافيا، لأنها تحتوي على خصائصها في الاهتمام بالمسالك والممالك والمفاوز والجبال والفيافي والصحاري والبراري، وتشكل موروثا يخدم الأنثروبولوجيا، وإن ارتبطت أكثر بالجغرافيا البلدانية لاهتمامها بالحوضر والقرى وأحوال العمران بصفة عامة، فوصفت بالأدب الجغرافي (شعيب، 2006، صفحة 41 42).

وفي ظل اعتماد الدراسات الحديثة على مبدأ وحدة العلوم الإنسانية والاجتماعية، فإن إشكالية هذه الدراسة تتمحور حول مدى مساهمة النصوص الرحلية والجغرافية في الوصول إلى الحقيقة التاريخية، باعتبارها أحد مصادر التاريخ الدفينة التي لا يمكن تجاوزها في الكثير من الدراسات. وإذا كانت الكتابة التاريخية أثبتت خطأ الاعتماد على المصدر الواحد، وأن الانتصار للنزعة التاريخية يكون حتما بتنويع مصادر الخبر، فإن هذه الدراسة تقدم شكل العلاقة بين النصوص الرحلة والجغرافيا وكتابة التاريخ، والتي تكون عبر فصح المجال للتطور التاريخي للمكان، ومعرفة العلاقة بين مختلف المجالات، وكيفية تحول المشهد الجغرافي إلى أساس ومنطلق للبحث التاريخي.

الرحلة وأبعادها

في التعريف العام للرحلة، فعلية كانت أو متخيلة، يكون الانتقال من مكان لآخر، هو العنصر الأساس والدعامة التي تؤطر الأحداث والأفعال، فالرحلة هي الانتقال في الفضاء بتعبير تودوروف (T.Todorov, 1992, p. 95)، والذي يؤكد أن هذه القيمة تكمن في الانتقال الداخلي بحيث يتغذى النص الرحلي من هذا العنصر، فالعبارة الاصطلاحية تختزل المعاني الجغرافية وتحمل أبعادها المختلفة فيحيل كل مصطلح على حيز مرجعي معين أو على مجال من مجالات الواقع المادي المحسوس، فالنص يحيل بنسبجه الاصطلاحي على الواقع، ويجعل المتلقي يفهم مختلف الأبعاد

الجغرافية الكامنة في المصطلحات، وهي أبعاد متنوعة منها الطبيعي والإداري والاقتصادي والاجتماعي والتاريخي (دبيش، 2011، صفحة 281).

ولارتباط الرحلة بالمجال؛ فمن الصعوبة القطع بانتسابها إلى فرع محدد من الفروع الأدبية بعينه دون آخر، ويتوقف ذلك حسب الزاوية التي ينظر إليها لمضمون النص الرحلي، وأسلوبه، وتتخذ أوضاعاً شتى في السياقات الموضوعية لها، لهذا؛ لا تخلو رحلة من سرد ووصف وتعليق من "الأنا" المتحركة لكل هذه المشاهدات والمرويات والتخيلات والأحلام، مما يجعل نعت نص الرحلة: تسمية مفتوحة على احتمالات الاختلاف والتنوع حسب هذه التخصصات (شعيب، 2006، صفحة 43).

إن دراسة التراث الخاص بالرحالة والجغرافيون المسلمين في العصر الوسيط تحديداً، يسمح لنا بمعرفة كيفية تطور هذا الفرع الذي أصبح عملياً أكثر مما هو خرافي أو خيالي مثلما كان عليه سابقاً، وأصبح الرحالة والجغرافيون يهتمون بحياة المجتمعات في الحواضر والبادية معاً، فلا تخلو مصنفاتهم من التطرق لأحوال العمران البشري الذي يشمل المدن والقرى والأرياف والبيئات المختلفة التي يعيش فيها الناس، وظروفهم العامة وكذلك وصف أحوال الشعوب التي اختلطوا بها، فأضحت بذلك الرحلة جزءاً أصيلاً من حركة الحياة على الأرض، وقد اعتاد الكتاب العرب على استعمال مفهوم "أدب الرحلات" للدلالة على كتابات الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين، الذين جالوا بين الشعوب والبلدان ووصفوا أهاليها، وتركوا بالتالي مادة غنية بالعناصر الأدبية، تجمع بين الوصف والكشف، والانطباع الشخصي والمغامرة، وفق بناء أدبي متماسك، وأسلوب سلس، غالباً ما يتمتع القارئ ويشد انتباهه، ولذلك فكثيرة هي الكتابات الجغرافية التي تحتوي الكثير من الأجناس الأدبية كالرواية والمقالة والشعر، كما تتضمن ملامح أدبية عديدة مثل الحكايات والأخبار، والنوادر والآثار (محمد، 2011، صفحة 413).

الجغرافيون والرحالة المسلمين: تحول جديد في التأليف الجغرافي

لم يظهر الخطاب الجغرافي خطاباً قائماً بذاته إلا لما يقوم به من دور فاعل في الفكر والواقع، ولا تكمن قيمته في ذاته؛ بل فيما يحققه من وظائف نفعية تفيد الفرد والمجتمع، فالنصوص الجغرافية عبارة عن نسق فكري بني على نهج مخصوص متحرر من أنموذج الكتابة السائد والمألوف أحياناً، ومتوافق معه في أحيان أخرى (دبيش، 2011، صفحة 7).

وتقدم هذه النصوص خدمة للكتابة التاريخية، بل إنها تصبح ضرورية في الكثير من القضايا والاشكالات التي يصبح فيها الرحالة والجغرافي شاهد عيان على مختلف الحقائق التاريخية التي عاشها.

ونتيجة الثراء الكبير الذي تتميز به الحضارة العربية الإسلامية، فإنه لا يمكن تجاوز ما قدمته المدونة الجغرافية العربية الإسلامية طيلة العصر الوسيط، في الفترة الممتدة إلى حدود القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي؛ إذ أضافت للتراث الإنساني؛ ليس فقط ما يتعلق بأوصاف الحياة في بلدان العالم الإسلامي المعروف بحدود مجاله الجغرافي، بل تجاوزت إلى أقصى حدود الصين في رحلة ابن بطوطة المسماة: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" (بطوطة، 1979)، وكذلك

بلغت إلى حدود بلاد الترك، والبلغار، والروس، والخزر في رحلة ابن فضلان، والذي يعرف عنه أنه كان فقيها ذا خبرة، عارفا بأمر الشريعة والدين، وكان مقربا للخليفة العباسي المقتدر بالله، قام بها في سفارة ترأسها سوسن الرسي في صفر 309هـ/ جوان 921م، لبلاد الترك والصقالبة والروس والخزر (كراتشوفسكي، 1957، صفحة 186 187).

وفي هذا السياق لا بد من الإشارة إلى ارتباط هذه المدونة بالتاريخ والمؤرخين، وهذا نتيجة العلاقة الوطيدة بين الفرعين وصعوبة الفصل بينهما، نتيجة المجال الواسع جدا الذي يربط المجال بالزمان، وكان من نتائج ذلك ظهور الجغرافية التاريخية، وتجمع تراث علمي بين القسمين، فأصبح الوصول إلى الحقيقة يتطلب دراسة التفاعلات الجغرافية عند الانسان انطلاقا من بيئته، فمصطلح الجغرافيا التاريخية قد يدفع الجغرافيا نحو التاريخ لتنهل منه ما تشاء (الجوهري، 1988، صفحة 140 143)، وفي الوقت نفسه كثيرا من المؤرخين اعتمدوا على أوصاف الجغرافيين لبناء الحقائق، ويكون ذلك كله محكوما إلى البناء السردي الأدبي، حيث احتاج الجغرافي إلى اللغة، واحتاج المؤرخ إلى زمن كاف للتطور والتغير، وقد أعطى مارو marron (1475 1481, p. 1475) للحقبة الأدبية خاصة بعدا زمانيا، حينما قارنها بمفهوم التيار الذي اعتبره خاصية تعاقبية، ولأن مصطلح التيار في أصله اللغوي يفيد السريان والجريان، أي ذو طابع حركي، فاعتبر بذلك أن التيارات الأدبية هي التي تقترح إعادة سيرورة ماضي التغيير، إلى مراحل وحقب متعاقبة أنظر التعليق رقم: 1) (البعزاتي، 1996، صفحة هامش 4 ص 32).

لقد ازدهرت حركة الرحلة أكثر مع ظهور كتب التراجم والسير والأدب التي تتعرض لتراجم الرحالة وتعرف بإنتاجية الكثير من هؤلاء الرحالة ورحلاتهم، ونجد المقرئ على سبيل المثال يصرح برقم ثلاثمائة (300) من الرحالة من الأندلس، لكنه يعبر عن عجزه على الوقوف على رقم محدد خاص بهم لكثرة المرتحلين من الأندلس، لأغراض تخص طلب العلم أو التجارة أو الحج، ويقول في هذا الشأن: "إن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب ... ولو أطلقنا عنان الأقلام في من عرفناه من هؤلاء الأعلام، لطال الكتاب وكثر الكلام، ولكننا نذكر منهم لمعا على وجه التوسط، من غير إطناب داع إلى الإملال، واختصار مؤد للملام". (المقرئ، 1968، صفحة 5).

ولا بد من الإشارة إلى خصوصية المدونة الجغرافية الإسلامية، التي تشترك مع الرحالة في أصالتها، حيث كانت نتيجة لثمرة تجارب عملية للجغرافيين والرحالة المسلمين، ولم تكن نقلا أو تخيلا للنصوص؛ فاليعقوبي يقول أنه ارتحل في عز شبابه وحدة ذهنه، بقصد التأكد من معرفة أخبار البلدان، ومعرفة جغرافيتها والمسافات التي تفصل بينها، ومن أجل ذلك كان سفره وهو في مقتبل العمر، معتمدا على الاستقصاء والسؤال، وتقييد الأخبار والشهادات التي وقف عليها (اليعقوبي، 2002، صفحة 9)، لذا كان شاهد عيان على الكثير من الأحداث، مثل الكثير من الرحالة.

أما ابن حوقل فكانت تجربته تختلف؛ إذ جمع بين الوصف وتحديد الأقاليم ورسمها، ففي مصنفه "صورة الأرض" يذكر أنه قام بتفصيل المناطق وتصوير خرائطها وتعيين حدودها وأطرافها، وذكر أهم حواضرها ومناطقها المشهورة، وأنهارها وخصائصها الطبيعية، وامكانياتها المالية فيما يخص

جباية الأموال والأعشار، ومعرفة أهم مسالكها وطرقها، وحال أسواقها، وما يتداوله التجار من السلع في تجاراتهم (حوقل، 1938، صفحة 2 3)، وهذه الأوصاف هي التي تجعل المصنفات الجغرافية ناطقة بلسان الرحالة، وتضيق الفجوة بين الرحلة والجغرافيا، وهو ما جعل الدارسين يعتبرون الرحلة مكملة للجغرافية، وكلاهما يخدم التاريخ.

على أن هذا العلم سيرتقي مع المقدسي في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد، الذي وإن نسب إلى مؤلفه التميز عن باقي المؤلفات السابقة له، فإنه يجب الإشارة إلى إغفاله لتراث من سبقه لهذا العلم، فهو يرى أن مصنفه اعتمد على علم لم يكن محل اهتمام سابقه من الكتاب في هذا الباب، الذي ذكر فيه مختلف أقاليم الخلافة الإسلامية، وما تحتويه من المدن والطرق والمسالك والأنهار، وأحوال الناس وأحاديثهم ولغاتهم ومذاهبهم وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية، خاصة ما له علاقة بالجوانب المالية من المعاملات الخاصة بالأسواق والمكايل والأوزان والأسعار ونوع النقود، والمأكول والمشرب، وأمزجة الناس وغيرها (المقدسي، 2003، صفحة 7 8).

وإذا شكلت هذه المصادر الجغرافية مصدرا غنيا للتراث الإسلامي، فإنها لا ترتقي أن تصبح مدونة علمية بما تتطلبه من الدقة، وفي الوقت نفسه لم يكن هذا التراث مصدرا أدبيا خاليا خالصا، بل كانت نصوصا خاضعة لروح العصر الذي أنتجت فيه، والتي شكلت في عمومها مرحلة متقدمة من مراحل تطور الفكر الجغرافي، ولذلك فهو خطاب معرفي يسعى أصحابه إلى التوفيق بين مقتضيات العلم والفن، أو بين المعرفة العلمية والتعبير الأدبي الفني، وهذا شكل أساس تنفرد به الثقافة العربية الإسلامية في القرون الوسطى، وهو الأدب (ميكل، 1983، صفحة 7)، بما يعنيه من شمول وكلية، والأخذ من كل علم بطرف، واتصال مواضيعه بالمعرفة العامة من جهة، والمختصة من جهة ثانية، وتوجهه إلى مثقفين غير مختصين أو متعمقين (دبيش، 2011، صفحة 10 11).

وتأكيدا على أصالة الكتابة وصدقها، يذكر المقدسي أنه لم يكتب مصنفه إلا بعد وقوفه على أحوال البلدان ومعابنتها، من خلال رحلاته في مختلف أقاليم الخلافة الإسلامية، وفي خلالها التقى العلماء، وجالس الخاصة من القضاة والملوك وأهل الحديث والقراء والزهاد، كما أنه يذكر بمعرفته لأحوال الأسواق والاتجار، وفي الوقت نفسه كان يهتم بجانب أكثر دقة، وهو الأبعاد الجغرافية والمسافات بين مختلف الأقاليم والحدود التي فصلها بشكل دقيق، دون إهماله للجانب الروحي، وسعيه لمعرفة المذاهب واللغات لمختلف المجتمعات (المقدسي، 2003، صفحة 8).

وهذا يشي بسعة العلم لدى هذا الجغرافي، وقيمة مصنفه في الجغرافيا وغيرها من العلوم والفنون.

ولذلك فإن الكتابات العربية في العصر الوسيط استطاعت وضع قاعدة ولبنة أساسية من اللبنة الأولى للإثنوغرافيا، كقطاع معرفي يهتم بطبيعة النظم الاجتماعية والثقافية للمجتمعات، دون خلفية نظرية بالمعنى المتعارف عليه اليوم على المستوى الأكاديمي، وأسست بالتالي لمحطة معرفية جمعت بين الوصف والتنظير في مرحلة لاحقة، سيما في العصر الحديث (محمد، 2011، صفحة 416 417).

دور الرحالة في الجغرافيا الكونية والبلدانية

بذل الرحالة المسلمون جهدا كبيرا من أجل التثبيت في صحة ومصداقية الأخبار التي كانوا يتلقونها في مساراتهم، وكانوا يسعون في أغلب الحالات إلى استقائها من مصادرها الأصلية، مما يرجح بوجودها مكتوبة في أماكن معينة (عمامو، 2011، صفحة 177)، وكانت الرحلات التي يتكدها مجمعو الأخبار تستغرق الفترة الأطول من أعمارهم في بعض الحالات، فيكفي الإشارة إلى ابن حوقل (ت380) الذي استغرق رحلته أكثر من ثلاثين سنة (حوقل، 1938، صفحة 3)، وهو يمثل أوج العطاء الجغرافي لسلسلة جغرافي أطلس الإسلام، الذين يشكلون أقطاب المدرسة الجغرافية الكلاسيكية الوصفية، إلى جانب كل من أبي زيد البلخي (ت322هـ/933م) الإصطخري (ت364هـ/974م) وشمس الدين المقدسي (ت390هـ/999م) (الصبر، 2013، صفحة 271)، وهي المجموعة التي تخلصت من المؤثرات الأدبية والفلكية، واتجهت إلى التميز عن باقي فروع المعرفة، بالتركيز على جغرافية المسالك والممالك.

إن أصالة كتابات الرحالة المسلمين في العصر الوسيط تعبر عن جهد هؤلاء في سبيل مؤلفاتهم، فهذا ابن رشيد (657هـ/721هـ - 1258-1321) يقول عن رحلته التي سماها "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيية مكة وطيبة" -وهي من أشهر مؤلفاته-، أنها استغرقت ثلاث سنوات من حياته (683-686هـ/1284-1287)، قضاه سائحا في ربوع الديار المصرية والحجازية والشامية، ثم قفل عائدا إلى المغرب، بعدما عرج على الأندلس للقاء صديقه ابن الحكيم في مدينة رُنْدَة، والذي سيصبح ذي الوزارتين في دولة بني الأحمر (الخطيب، 1977، صفحة 444 476)(الجمعة، 2008، صفحة 79 80).

ونجد فترة الرحلة تأخذ زمانا أطول مع الرحالة ابن بطوطة (ت770هـ/1368)، الذي استمرت في الشرق حوالي خمس وعشرين سنة (كراتشوفسكي، 1957، صفحة 417 418) منذ أن خرج عام 725هـ/1324م إلى أن عاد إلى مدينة فاس في عام 750هـ/1349م، ثم سرعان ما واصل الرحلة إلى بلاد الأندلس وعاد منها في عام 753هـ/1352م، ثم توجه إلى بلاد السودان التي عاد منها في عام 754هـ/1353م، وبذلك يكون مجموع الرحلة ما يقرب من تسعة وعشرين سنة (الجمعة، 2008، صفحة 92)، وامتازت رحلته التي أمر السلطان المريني أبا عنان كاتبه ابن جزي الغرناطي بتدوينها في كتاب حمل عنوان: "تحفة النظر في عجائب الأمصار"، وامتازت بالشمولية وطولها، وتنوع حوادثها، حيث جمعت الكثير من الغرائب والعجائب، واحتوت زخم كبير من المعلومات التي تخص أحوال المسلمين السياسية والاجتماعية والاقتصادية، في مختلف البلاد التي زارها.

أما البلوي (ت780هـ/1378م) فقد استمر في رحلته ما يقارب خمسة أعوام إلا شهرين وثمانية عشر يوما (البلوي، صفحة 44)(الجمعة، 2008، صفحة 100)، ونستطيع القول بأن النص الرحلي في عموميه يسمح لنا بواسطة هذه التجارب التي قد تطول سنين عديدة من الزمن؛ بأن يكشف عن رغبة الرحالة في رؤية فضاءات وأجناس متعددة، من أجل استيعاب أكبر لوحدة الفكر البشري وتنوع المجتمعات (Henri, 1994, p. 32).

إن النخب الإسلامية منحت لهذا القطاع المعرفي الحيوي (الرحلة والجغرافية) مكانة خاصة، بإدخالهم لتقنيات جديدة في طريقة وضع الخرائط، وأوصافهم لشعوب العالم المعروف آنئذ، استنادا إلى المشاهدة والملاحظة، ففي مرحلة أولى؛ استأنس المسلمون بكتاب بطليموس في "الجغرافية"، الذي اقتصر على العالم المعروف لدى الإغريق، وهو الحوض المتوسط، في حين ظلت بقية العوالم في حكم المجهول "terra incognita"، وبامتداد أطراف الخلافة الإسلامية إلى الشرق من هذا الحوض، تمكن المسلمون من إدماج هذا الطرف الكبير من العالم في التصور الجديد للأرض، وقد تأتى لهم هذا الحقل المعرفي الكبير، الذي وضع لمسة خاصة على علم الجغرافية، بفضل الحساب، إذ استطاعوا تدقيق الكثير من المعطيات ومراجعتها وتصحيحها (محمد، 2011، صفحة 409).

ويمكن النظر إلى الإسهام الإسلامي، في ميدان الجغرافية أو تخطيط الأرض، من خلال صنفين رئيسيين من الأعمال، الأول: يتصل بما يسمى بالخرائط الكونية، كتلك التي انتجها الشريف الإدريسي، هذا الأخير الذي رسم خريطة للعالم في مدة خمسة عشر عاما، في وقت كانت أوروبا القرون الوسطى لم تعرف قط علم الجغرافيا، ولم تعد تسمع بالجغرافي اليوناني بطليموس (عمارة، 2008، صفحة 204 205)، أما الثاني: فيتعلق بخرائط المسالك، وهي ذات تخطيط إقليمي ومحلي، وفائدتها كبيرة من الناحية العملية بالنسبة للتجار والحجاج والجيوش، وهذه الخرائط وضعها الجغرافيون انطلاقا من مشاهدة البلدان التي زاروها، وشاهدوا مجالاتها الجغرافية وتنظيماتها الاجتماعية وعتادات أهاليها، وتسمى هذه الجغرافية، التي استندت إلى الوصف والمعينة، بالجغرافية الإقليمية، أو الجغرافية البلدانية (محمد، 2011، صفحة 410 411).

المغاربة والرحلة إلى الشرق

لا شك في أن ابتعاد الخطاب الجغرافي عن الإنتاج المتخيل واتصاله بالواقع المادي الطبيعي والبشري، جعل المادة المعرفية أهم من طرق تأديتها، فلم تنل الصياغة لدى الجغرافيين حظا كبيرا، ولم تظهر حولها دراسات تبحث في طبيعتها، أو في مدى ملائمتها للآراء المعروضة، والفكر المطروح، وطبيعة المرحلة التاريخية، رغم ما للصياغة من أهمية في تليين العلاقة بين المخاطب والمخاطب، فلا يبلغ المقول أذهان القراء إلا إذا كانت الطرق وسبل الأداء يسيرة، خاصة إذا كان المقول مادة علمية، أو محتوى معرفيا له صلة بوصف الإنسان، ومحيطه الطبيعي والفلكي والاقتصادي والعمراني، فالشكل من هذه الزاوية هام في تحقيق مبتغى الخطاب، وهو الكشف عن المعنى (دبيش، 2011، صفحة 7).

وإذا كان تركيز الإداريين (كابن خرداذبة، قدامة بن جعفر، اليعقوبي) والمسالكين (كالإصطخري، ابن حوقل، المقدسي، البكري) على المسالك البرية، فإن غيرهم من أصحاب الرحلات (أخبار الصين والهند لسليمان التاجر السيراقي (توفي بعد 330هـ)، ورحلة ابن فضلان، ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي) تحدثوا عن المسالك المائية في البحار والأنهار وغيرها من أنواع المسالك الأخرى (دبيش، 2011، صفحة 497).

بعد انتهاء العمليات العسكرية للفتوحات الإسلامية ببلاد المغرب، وانخراطه في شبكة علاقات جديدة في إطار الخلافة الإسلامية، ازدهرت حركة الرحلة للمغاربة إلى بلاد المشرق الإسلامي والحجاز تحديدا، إذ تطلبت عملية إخضاع المغرب من الفاتحين خضوعه لأحكام الدين الجديد، كغيرها من المناطق المفتوحة والتي خضعت في إطار دار الإسلام، لكن دون وجود التفاصيل والأدلة الأثرية، إضافة إلى غياب شواهد تخص أسلمة عالم الريف أيضا، وكيفية تحول المجتمعات والعمران والمدن،

باستثناء العملة (Amara, p. 125)، لذلك فإن المصادر التي كتبت عن تلك الفترة أغلبها روايات ونصوص المؤرخين والرحالة، حيث كانت الحركة والانتقال مزدهرة بين الشرق والغرب، ويذكر ابن خلدون أن المغاربة كان مقصدهم الرئيس في بلاد المشرق منطقة الحجاز، لارتباطهم بالمدينة المنورة مدينة الصحابة والتابعين والزهاد والفقهاء والعلماء الذين كانوا يأخذون عليهم مختلف أصناف العلوم والأحكام الفقهية (خلدون، 1961، صفحة 805).

عادة ما ينطلق الرحالة والجغرافيون في استقراء عالم الآخرين، من نظام عادات وقيم يجعلونها مقياسا يقيسون عليه ما يشاهدونه، وغالبا ما تكون المنظومة الدينية الإسلامية، ومنطلق الحلال والحرام، والحسن والقبح، هو المرجع والمعيار الذي يحدد المقبول والمرفوض.

وطبيعي أن تحتل بلاد الحجاز المكانة المرموقة في مقصد رحالة بلاد المغرب، -ولا تزال كذلك-، لأن الحج يعتبر ركنا يتشوق إلى أدائه مختلف شرائح المجتمع بما فيهم عامة الناس والفقراء، فضلا عن القيمة العلمية لهذه البلاد خاصة في العهد المبكر للإسلام (الجمعة، 2008، صفحة 24). ولاحتواء هذه المنطقة على جغرافيا مقدسة للمسلمين، فيكون المقياس الديني عاملا من عوامل تفضيل مدينة على أخرى؛ فالمدن المقدسة غير المدن العادية، لأنها مراكز روحية تمارس فيها العبادات بمختلف وجوهها، وتعد مكة أهم مدينة دينية في نظر الجغرافيين، وهم بذلك يجارون تصورا إسلاميا قائما يشيد بمكة وأجوارها مثل الطائف والمدينة، وتعد مكة قبلة المسلمين في مواسم الحج والعمرة، يتبركون بها وبعنصرها التاريخية المقدسة، كبنز زمزم والكعبة وغاري ثور وحراء (دبيش، 2011، صفحة 464 465).

لقد كان الاهتمام بالأحاديث وجمعها في مقدمة العلوم التي يرحل المغاربة من أجلها، وهناك العديد من العلماء الذين رحلوا إلى المشرق للالتقاء بأعلام علم الحديث، فبرزوا فيه بعد عودتهم، في التأليف في هذا الباب، سيما ما تعلق بجمع الحديث في كتاب منظم ودراسته. فالعلم لا يحصل إلا بالتلمذ في مجالس العلم، وقد خصص ابن خلدون فصلا للرحلة في طلب العلم، ويرى أن لقاء المشيخة فيه مزيد من كمال التعلم، لأن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين، أشد استحكاما، وأقوى رسوخا من غيره، وبقدر ما يكون عدد الشيوخ كثيرا، تحصل الملكات، وتترسخ أكثر، لتعدد المذاهب والطرق، واختلاف أجناس العلوم (خلدون، المقدمة، 1961، صفحة 358)، ومن أجل ذلك كانت الرحلة الوسيلة التي مكنت المغاربة للوصول إلى هؤلاء العلماء والفقهاء منذ القرون الأولى.

ومن العلوم الدينية الأخرى التي ركز عليها الرحالة الأندلسيون علوم القرآن، وهي تشمل علم القراءات وعلم التفسير، وتعدتها إلى العلوم الأخرى، كاللغة والعربية وآدابها (الجمعة، 2008، صفحة 20)، ولم يقتصر طلب العلم على فرع دون آخر، لارتباط العلوم مع بعضها البعض، كما أن بعض العلماء كانوا يمارسون مهنا وحرفا أخرى بجانب اهتمامهم بطلب العلم.

ومع توافد أعداد كبيرة من الفقهاء والعلماء والمضطهدين مذهبيا على بلاد المغرب، لم تعد تشكل صدى لما يحدث في المشرق، بل تطورت فيها الحضارة الإسلامية وازدهرت العلوم، وإذا تصفحنا كتب التراجم الأندلسية، وجدنا أسماء العديد من العلماء الذين رحلوا إلى بلاد الشرق، في سبيل تحصيل العلم والتمكن من الجوانب العلمية (الجمعة، 2008، صفحة 20 21).

أما عن مسارات ونوعية الرحلة فإنها تبدأ من لحظة الانطلاق إلى المكان المقصود منذ خروجها، سواء للهجرة، أو للتعليم، أو للتجارة، أو للحج، أو للزيارة، أو للسياحة، أو للسفارة.. وهذا هو السياق الشامل الذي تتحقق فيه كل أهداف الرحلة، فيتم اللجوء إليه عن رغبة وشوق (الحج، الزيارة، السياسة)، أو بأمر (السفارة)، أو عن ضرورة وحاجة (التجارة، العلم) أو عن اضطرار (الهجرة، النفي)، وبين الرغبات أو نقائصها يرتبط المكان المتجه إليه بمسألة الانفصال عن "مكان الأنا"، والتوجه نحو "مكان الآخر"، مع تشكل رؤى وتحديات لهذا المكان ذهنيا ووجدانيا (شعيب، 2006، صفحة 350).

وقد ذهب علي أومليل إلى أن الرحالة المسلم ينطلق من موقع، من نظام للعوائد والقيم، هذا الموقع هو مقياسه القار، يقابل عليه ما يشاهده ويتأمله من مغامرة الرحالة يحمل معه موطنه، يحمله معه وهو يتنقل في مجال الغرب والمغاربة، المقارنة عمليته الذهنية اليومية، فصلاية الموقع المرجعي للرحالة تتوقف على تفوق حضارته وهو يحتك بالمجتمعات والحضارات المغاربة، وقد كان هذا حال الرحالين المسلمين، فمهما كانت رحلاتهم بعيدة وموغة في أرجاء المعمورة، فإنهم لم يكونوا يشعرون بالدونية، وقد يلاحظون الآخر متفوقا في هذا المجال أو ذاك، إلا أن ملاحظاتهم لا تمس اعتقادهم الراسخ بتفوق النظام الإسلامي العام (أومليل، 1988، صفحة 40 42).

لم يكن مسار الرحلة ثابتا، بل كان خاضعا لتطورات ومتغيرات مستمرة، ففي كثير من النصوص؛ يصبح المكان الهدف فضاء للعبور والانتقال إلى أهداف أخرى، مثل ابن بطوطة الذي حدد هدف وجهة رحلته إلى الحج، ثم ارتحل بعد ذلك إلى أهداف شتى، وهو الأمر الذي يتحقق في النصوص الزيارية والعلمية والسياحية، بينما يبقى النص السفاري ملتزما بالأمكنة التي يرسمها منذ البداية (شعيب، 2006، صفحة 350).

أما المسالك الخاصة بالرحلات فتعتبر مشغلا أساسيا من مشاغل الجغرافية الإسلامية، فقد خصها الجغرافيون والرحالون بمصنفات تتناول الطرق والمحطات الرابطة بين النقاط الأهلة والمراكز العمرانية الكبيرة والصغيرة.... ويعتبر كتاب ابن خرداذبة -فاتحة التصنيف الجغرافي الإسلامي- دليلا على ما أولاه الجغرافيون من اهتمام بالمسالك وطرق البريد، فالمعرفة بها تيسر مسالك السيطرة على أقاليم العالم الإسلامي، وتمكن الدولة من مراقبة كل المواقع إداريا وجبائيا وعسكريا (دبيش، 2011، صفحة 496 497).

العمارة والرحلة

في العصر الوسيط ستتطور مدن جديدة، وسيكون لها الدور الكبير في استيعاب الجند الفاتحين وأسرهم وغيرهم من المستقرين بتلك البلاد، ولم تكن هذه التحولات سريعة، بل تميزت بالبطء، لكنها جرت بصورة نهائية في معظم المدن والأمصار التي صبغت بصبغة إسلامية في تركيبها ومرافقتها بالنسبة للمدن القديمة، وفي عمليات التخطيط بالنسبة للمدن المحدث.

وإذا ما تتبعنا المراحل التي مرت عليها هذه المدن، وما جرى للعمارة ببلاد المغرب الأوسط من تحولات بعد القرن الثاني للهجرة، فإننا نجد أن بلاد المغرب لم تسمح له حداثة العهد بالإسلام بالتطور والتغيير السريع، لكن مع بداية القرن الثاني للهجرة تبدأ مرحلة تأسيس المدن الإسلامية تبعا لضرورات أملت طبيعة المرحلة.

عادة ما تكون المدن الكبرى عواصم سياسية أو دينية أو علمية أو اقتصادية، وأحيانا أخرى تجتمع في المدينة الواحدة كل هذه العناصر أو بعضها، مثل المدينة ودمشق وبغداد والقيروان وقرطبة، والقصبات أو الأمصار من المدن، هي عواصم سياسية كالقيروان وبلرم وبغداد (ديش، 2011، صفحة 465)، وقد أولى الجغرافيون المدن أهمية كبرى لأنها تستقطب كل الأنشطة الحيوية، وتساهم في تقدير أهمية البلدان وتعييرها، ولم ينظر الجغرافيون إلى المدن في ذاتها، بل بصفتها مراكز عمرانية تحيط بها عديد القرى والبوادي، فالمدن عند المقدسي كالجند، والقرى كالرجالة، وهي تستقطب السكان لكثرة خيراتها، وتوفر أسباب العيش فيها (المقدسي، 2003، صفحة 35) وعكس الحواضر الكبرى؛ فإن القرى الهامشية والطرفية أو البعيدة التي لم تكن في مسارات الرحالة، والتي أغفلتها أغلب المصادر، تحتاج إلى المزيد من البحث عن أدوارها المختلفة، لأن عدم ورودها في النصوص والمصنفات المختلفة لا يعفي الباحثين من تنويع أدوات البحث ومناهجه ومعرفة ماضيها.

لقد كان الأمراء الأغلبية مولعين بالعمارة، مثل الأمير أبي إبراهيم أحمد بن أبي العباس (242 – 249 هـ) الذي بنى بإفريقية نحو من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد (خلدون، 2000، صفحة 256) (القلقشندي، 1915، صفحة 121)، أما الأمير محمد بن أبي إبراهيم بن أحمد (250 – 261 هـ) فبنى حصونا ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشر يوما من برقة إلى جهة المغرب الأقصى (البكري، 2003، صفحة 285 286)، وقد استمر الأغلبية في هذه السياسة المتعلقة ببناء المحارس والحصون، وتفيدنا المصادر التاريخية أن الأمير إبراهيم بن أحمد شقيق أبي الغرائيق (261 – 289 هـ/874-901) بنى الحصون والمحارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة للندير بالعدو، فيتصل إيقادها بالإسكندرية في الليلة الواحدة، (خلدون، 2000، صفحة 259). وقد كانت هذه العمارة معروفة، وكانت ما تزال قائمة في زمن ابن خلدون.

ومهما كانت واقعية هذه الروايات التاريخية؛ فإن ذلك يدل على مدى الاهتمام الذي أولاه الأمراء الأغلبية بالبناء، وحتى وإن كان هذا العمران ذا طابع عسكري، وشيد من أجل المراقبة على الثغور والسواحل لصد هجمات النصارى، فإن هذه الأربطة والمحارس كثيرا ما شكلت مراكز عمرانية تحولت مع مرور الوقت إلى مدن قائمة بذاتها.

لقد وصف الجغرافيون أغلب مجالات وأقاليم بلاد المغرب، بإقليم الزاب كان من أهم الأقاليم التابعة للسلطة الأغلبية، وقد لعب دورا محوريا وخطيرا في مراحل الفتح الإسلامي المبكرة لبلاد المغرب، والقرون التي تلتها؛ وكانت طينة عاصمة الإقليم في الكثير من المرات ينصب ولائها أمراء بالقيروان، ولأن موقعه وسط في المغرب؛ يجعله قادرا على الإطلال على كل البلاد، ولأن له أيضا تاريخا ممتدا في إفراز الممالك، وأخيرا لاكتسابه بصفته ثغرا لقوة عسكرية عتيقة (جعيط، 2004، صفحة 122)، وقد ذكر اليعقوبي أن طينة مدينة الزاب العظمى وهي في وسط الزاب وبها ينزل الولاة (اليعقوبي، 2002، صفحة 190)، لذلك شكلت النصوص الجغرافية مادة لا يستغنى عنها للخبر التاريخي، وقدمت شواهد وصور مختلفة حول مختلف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية وحتى المذهبية للمدن والحواضر، وهي غنية وثرية تحفل كذلك بأبعاد بيوغرافية لا غنى عنها للمؤرخين.

إن جغرافية المدن من خلال وصف الرحالة تشكل بابا أساسيا في الجغرافية الوصفية الإسلامية، لأنها تمكن الجغرافية من عرض الأقاليم والتعريف بها من خلال مدنها، فالتعريف بالكل يتم عبر الأجزاء؛ متفرقة أولا ومتصلة ثانيا، فجغرافية العالم الإسلامي كما تتجلى لدى المسالكين يمكن استنباطها والوقوف على تفاصيلها من خلال جغرافية المدن، إذ ما يتوفر فيها من مادة ومعطيات ميدانية موثقة، يقرب المواقع من القارئ، ويمكنه من تمثيلها والوقوف على خصائصها.

خاتمة

شكلت مصنفات الرحلة مرحلة متطورة من النصوص الجغرافية العربية الإسلامية في العصر الوسيط، وكان هذا التراث الجغرافي من أهم روافد التاريخ الذي بني على أسس متنوعة وجغرافيات متشعبة، اعتمدت على البيئة التي عاش فيها الرحالة أو كانت موضوعا لمقولاته التي عبر فيها عن علاقته بمختلف الأمكنة والأوطان والبلدان التي تجاوزت حدود مجالات الخلافة الإسلامية وأطرافها، وقد ساهم الرحالة المسلمون بنقل الفكر الجغرافي إلى مستوى تجاوز الجغرافيا الأسطورية إلى مرحلة متقدمة من التأسيس لجغرافيا الممالك والمسالك، تبعا للتحويلات الاقتصادية والسياسية لنظام الخلافة الإسلامية، وازدهرت حركة التأليف في هذا الباب بظهور نخب متخصصة سارت في مشارق ومغارب دار الإسلام، ولم تنقطع حركة التأليف إلى غاية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، بانتهاء الجغرافيا الوصفية الممثلة في الحسن الوزان (ليون الإفريقي) صاحب كتاب "وصف إفريقيا".

التعليق رقم: 1

تفيد الحقبة في الاصطلاح اللغوي العربي، حبس الشيء، كما تفيد المدة الزمنية، فقد دلت على سنة، أو على عدة عقود. ومصطلح période بالفرنسية يفيد مدة زمنية معينة، وغالبا ما اقترنت بالحقبة التاريخية الكبرى، كما تفيد الدورة الزمنية المحدودة. ويفيد مصطلح période في الانجليزية، حقبة من الزمن، أو علامة ترقيمية (،) (فاصلة) تقوم بتقطيع الجملة إلى مقاطع لها علاقة بالمعاني الجزئية فيها... وتفيد مقطعا زمنيا محددا بظاهرة متكررة، وبذلك تشمل معاني، العصر، العهد، المرحلة.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المراجع باللغة العربية

1. البعزاتي، ب. (1996). في تحقيق العلوم. مراجعة لتحقيق باشلار لتطور الفكر العلمي (Vol. ط1). (المحمدية. المغرب: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط).
2. البكري. (2003). المسالك والممالك. بيروت: دار الكتب العلمية.
3. البلوي (s.d.). تاج المفرق في تحلية علماء المشرق. المحمدية. المغرب: مطبعة فضالة.
4. الجحمة، ن. ع. (2008). رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري (12-14م). (Vol. ط1). (ابو ضبي: دار السويدي للنشر والتوزيع).
5. الجوهري، ي. (1988). فلسفة الجغرافيا. الاسكندرية: منشورات شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.
6. الخطيب، ا. (1977). الإحاطة في أخبار غرناطة. مصر: دار المعارف.
7. الصبر، ع. ا. (2013). تاريخ الغرب الإسلامي من خلال جغرافيات مشرقية مؤلفة قبل نهاية القرن الخامس للهجرة (Vol. ط1). (بيروت: دار الكتب العلمية).

8. القلقشندي (1915). صبح الأعشى في صناعة الانشاء. القاهرة: المطبعة الأميرية.
9. المقدسي (2003). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. بيروت: دار الكتب العلمية.
10. المقري (1968). نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب. بيروت: دار صادر.
11. اليعقوبي (2002). البلدان (Vol. 1ط). (لبنان: دار الكتب العلمية).
12. اومليل، ع (1988). ديسمبر (الذات والمغايرة. مجلة الوحدة).
13. بطوطة، ا (1979). تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (Vol. 2ط). مؤسسة الرسالة.
14. جعيط، ه (2004). تأسيس الغرب الإسلامي. القرن الأول والثاني هـ / السابع والثامن هـ. بيروت: دار الطليعة.
15. حوقل، ا (1938). صورة الأرض (Vol. 2ط). (دار صادر).
16. خلدون، ا (1961). المقدمة. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
17. خلدون، ا (2000). بيروت: دار الفكر.
18. خلدون، ا (2000). ديوان العبر والمبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت: دار الفكر.
19. دببش، ل (2011). الإنسان والمكان في الثقافة العربية الإسلامية. تونس: منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.
20. شعيب، ح (2006). الرحلة في الأدب العربي. التجنس، آلية الكتابة، خطاب المتخيل (Vol. 1ط). (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع).
21. عمارة، ع (2008). دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
22. عمامو، ح (2011). في ماهية المصادر الإسلامية المبكرة واختلاف آراء الباحثين في أهميتها التاريخية. الكتابة التاريخية في العصر الوسيط من الخبر والرواية إلى النص والوثيقة (p. 177). تونس: منشورات مخر العالم العربي الاسلامي الوسيط.
23. كراتشوفسكي، ا (1957). تاريخ الأدب الجغرافي العربي. القاهرة: الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية.
24. محمد، ح (2011). النص الاثنولوجي الوسيط. الخبر الجغرافي نموذجا. الكتابة التاريخية في العصر الوسيط من الخبر والرواية إلى النص والوثيقة (p. 413). تونس: منشورات مخر العالم العربي الاسلامي الوسيط.
25. ميكل، أ (1983). جغرافية دار الاسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد الديني.

ثانيا: المراجع باللغة الأجنبية

26. Amara, A. (s.d.). L'islamisation Du Maghreb Central 7e 11 e- 2 e 5 eh.
27. Henri, P. D. (1994). La Littérature Générale Et Comparée. Paris: Colin.
28. Marroon, H. I. (1961). Comment Comprendre Le Métier D'Histoire . Paris: Samaran.
29. T.Todorov. (1992). Les morales de l'histoire. france: Grasset.